الأوزان والقوافي

الشعر فنّ جميل تستهويه النفوس « مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت . وهو في أغلب أحواله يخاطبُ العاطفة . ويستثيرُ المشاعر والوجدان . وهو جميلٌ في تخيّر ألفاظه . جميلٌ في تركب كلماته . جميلٌ في توالي مقاطعه وانسجامها . بحيث تتردّدُ ويتكرّرُ بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغماً منتظماً »(٣١٩)

ان للشعر خصائص موسيقية . تأتيه ـ في الغالب ـ من الوزن والقافية . وقد اهتمّ بهما الدارسون القدامى . فقال ابن رشيق : « الوزن أعظم أركان حدّ الشعر . وأولاها به خصوصية . وهو مشتملٌ على القافية وجالب لها ضرورة . إلاّ أنْ تختلفَ القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن . وقد لا يكون عيباً نحو المخمسات وما شاكلها »(٣٢٠)

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي الرائد الأول في تسجيل أوزان الشعر . اذ نظر في التراث الشعري فعرف منه خمسةَ عشرَ وزناً على نحو ماهو معروف في علم العروض . ثم جاء أبو الحسن الأخفش فاستدرك عليه وزناً نادراً أسماهُ المتدارك . وقد ألمّ الشعراءُ العباسيون بهذه الأوزان ونظموا على تفعيلاتها . التي تمثل الوحدات الصوتية . وكان الميل في كثير من الأحيان الى الأوزان القصيرة والمجزوءة . ولا سيما الذي يُغنّى به . اذ يستدعي الرشاقة والعذوبة والنعومة والخفّة ويلائم حياة القصور والحانات والخمائل وما فيها من نعيم ولهو وطرب وألحان ... والشيء الذي نقف عنده قليلاً هو بحر المجتث الذي نظر اليه النقاد القدامى نظرة استصغار . قال حازم القرطاجني : « أما المجتث والمقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما»(٣٢١) » . فاننا نخالف هذا الرأي . فهو ـ وان كان قليلاً في أشعار المتقدمين كما يقول أبو العلاء المعري(٣٢٢) ـ محبب الى النفوس . وأكثر استجابة للغناء وطواعية للموسيقى . لذلك نظم فيه الشعراء في العصر العباسي . أمثال بشار بن برد(٣٢٣) . ومطيع

---

(٣١٩) موسيقى الشعر ص ٧ .
(٣٢٠) العمدة ١ : ١٢٤ .
(٣٢١) منهاج البلغاء ص ٢٦٨
(٣٢٢) الفصول والغايات ١ : ١٣٢ .
(٣٢٣) ديوان بشار ١ : ١٥٧

ابن اياس(٣٢٤) . والعباس بن الأحنف(٣٢٥) ومن جاء بعدهم . واليك هذه الأبيات من بحر المجتث من قصيدة لمطيع بن اياس :

ويلي ممن جفاني ... وحبه قد برانـي
وطيفه يلقاني ... وشخصه غير داني
أغر كالبدر يمشي ... بحسنه العينان
جاري، لا تعذلاني ... في حبه ودعاني

ومن المقتضب قول أبي نواس(٣٢٦) :

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ... ليس ما به لعب
تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب ؟
تعجبين من سقمي ؟ ... صحتي هي العجب
كلما انقضى سبب ... منك عاد لي سبب

تصرّف بعض الشعراء بالأوزان المعروفة . كما استحدثوا أوزاناً أخرى تلائم الأذواق آنذاك وتنسجم مع روح العصر . وكان عبدالله بن هرون بن السُمَيْدع البصري أولَ مَنْ أقدم على ذلك . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « أخذ العروض من الخليل بن أحمد . فكان مقدّماً فيه . وانقطع الى آل سليمان بن علي وأدّب أولادهم . وكان يمدحهم كثيراً . فأكثر شعره فيهم . وهو مقلّ جداً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة في شعره . ثم أخذ ذلك عنه ونحا نحوه فيه رُزَين العروضي . فأتى فيه ببدائع جمّة . وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »(٣٢٧) . ومن شعر رُزَين العروضيّ الأبيات الآتية من قصيدة يمدح بها الحسن بن سهل وزير المأمون :(٣٢٨)

---

(٣٢٤) الاغاني ١٣ : ٢٩٢ .
(٣٢٥) ديوانه ص ٧٢ ، ٢٤٤ .
(٣٢٦) ديوانه ص ٢٣٧ .
(٣٢٧) الأغاني ٩ : ١٦٠ .
(٣٢٨) معجم الأدباء ٩ : ١٦ .

مَنْ مبلغُ الأمير أخي المكرماتِ مِدْحةً محبَّرةً في أَلُوكْ ؟(٣٢٩)
تـزدهـي كواسطةٍ في النِّظامِ فوقَ نَـحْرٍ جاريةٍ تـسـتـبـهـكْ
يابْـنَ سادةِ زُهْرٍ كالـنُّـجومِ أفـلـحَ الذيـن هُـمْ أنـجـبوكْ

واذا دقّقنا في وزن هذه الأبيات وجدناه عكس المنسرح ، وهذا ليس بغريب ، اذ لجأ عدد من الشعراء الى أوزان مهملة ولّدها الخليل بن أحمد الفراهيدي من عكس دوائر البحور ، من ذلك :(٣٣٠)

بحر المستطيل : وهو عكس الطويل . وأجزاؤه (مفاعلين ، فعولن . مفاعيلن . فعولن) .
بحر الممتد : وهو عكس المديد ، وأجزاؤه (فاعلن . فاعلاتن . فاعلن . فاعلاتن) .
بحر المتوافر : وهو محرَّف الرمل ، وأجزاؤه (فاعلاتك . فاعلاتك . فاعلن)
بحر المتئد : وهو مقلوب المجتث ، وأجزاؤه (فاعلاتن . فاعلاتن . مستفع لن) .
بحر المطرد : وهو مقلوب التفعيلتين الأوليين من بحر المضارع ، وأجزاؤه (فاعلاتن . مفاعيلن . مفاعيلن) .
بحر المنسرد : وهو مقلوب التفعيلتين الأخيرتين من بحر المضارع أيضاً ، وأجزاؤه (مفاعيلن . مفاعيلن . فاعلاتن) .

وكان أبو العتاهية من أكثر الشعراء الذين أطلقوا أنفسهم على سجيتها لتخلق وتبتكر الأوزان التي تليق بما يقولون من الشعر . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني « وله أوزان لاتدخل في العروض »(٣٣١) . وقال بن قُتيبة : « وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب »(٣٣٢) واستشهد بهذه الأبيات من شعره :

عُـتْـبَ : مالـلـخـيالِ خـبـريـنـي وما لـي ؟
لا أراه أتانـي زائراً مُذْ لـيالـي
لو رأنـي صديـقـي رقَّ لـي أو رثى لـي
أو يرانـي عدوي لانَ مـن سوءِ حالـي

---

(٣٢٩) الألوك : الرسالة .
(٣٣٠) معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ١٢٣ .
(٣٣١) الأغاني ٤ : ١٣ .
(٣٣٢) الشعر والشعراء ص ٦٧٦ .

والقافية كما هو معروف شريكُ الوزن في الاختصاص بالشعر . فهو القرار الذي ينتهي اليه كل بيت . فتحدث مع الوزن وحدة موسيقية في القصيدة(٣٣٣) . وقد جدد الشعراء العباسيون في القافية كما جددوا في الأوزان . فاستحدثوا ماسموه باسم المزدوج والمسمط والمخمس ... أما المزدوج فالقافية فيه لاتطّرد في الابيات . بل تختلف من بيت الى بيت . في حين تتحد في الشطرين المتقابلين . كما شاهدنا في النماذج التي أوردناها في الشعر التعليمي . أما المسمّط فهو قصائد تتألف من أدوار . تعتمد على قطب واحد يسمّى عمود المسمط . وكل دور يتركّب من أربعة أشطر تتّفق في قافية واحدة ماعدا الشطر الأخير فانه يستقل بقافية تشابه قافية العمود التي بدأبها الشاعر . ومن أمثلته مسمّطة لأبي نواس في وصف الخمرة (٣٣٤)

تُـــلافُ دنٌ كـــشـــمس ذجْـــنِ
كدمـــع خفْـــنِ كـــخـــمر عَدْنِ

فاحـــتْ بريـــح كريـــح شِـــيـــحِ
يوم صـــبوح وغـــيـــم دجـــنِ

يـــسـقـــيـــكَ ساقٍ على اشـــتـــياقِ
الـــى تـــلاقٍ بمـــاء مُـــزْنِ
يامَـــنْ لـــحانـــي على زمانـــي
الـــلـــهو شانـــي فلا تـــلُـــمـــنـــي

والمخمسُ شبيه بالمسمّط . فهو يعتمد على الأدوار . كلّ دور يتكون من خمسة أشطر . الاربعة الأولى متّحدة القافية . والخامس قافيته ثابته وهو بمثابة اللازمة . واليكَ هذا الدور من خمسة لأبي نواس :(٣٣٥)

ماروضُ ريـــحانـــكـــم الزاهرُ وما شَذى نـــشركـــم الـــعاطرُ
وحـــقّ وجدي . والـــهوى قاهرُ مذ غبتمُ لم يبقَ لي ناظرُ
والقلبُ لاسالٍ ولا صابرُ

---

(٣٣٣) أبو فراس الحمداني ، حياته وشعره ص ٣٩٢ .
(٣٣٤) ديوان أبي نواس ص ٣٤٩ .
(٣٣٥) حياة الحيوان للدميري ١ : ٩٩ .

ويطالعنا أبو العتاهية بأبيات شعرية لم نألفها من قبلُ . فهي لاتقرأ الاّ قطعة واحدة متصلة . على الرغم من تقفية صدور الأبيات وأعجازها :(٣٣)

ياذا الذي في الحبّ يَلْحى أما ... والله لو كُلِّفْتَ منه كما
كَلِفْتُ . من حبّ رخيمٍ . لما ... لُمتَ على الحبِ . فذرني وما
ألقى . فانّي لستُ أدري بما ... بُلِيتُ إلاّ أنّني بينما
أنا ببابِ القصرِ ـ في بعض ما ... أطوفُ في قصرهم ـ اذ رمى
قلبي غزالٌ بسهام . فما ... أخطابها قلبي . ولكنما
سهماهُ عينانِ له . كلّما ... أرادَ قتلي بهما سلّما

---

(٣٣) الموشح للمرزباني ص ٤٠٥ .